كتاب "المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين"
مغامرة في الكشف وإعادة البناء

عبد العزيز السيد البديوي

شاع عن الكتابات النقدية والبلاغية قبل ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) الذي وضع كتابه "البديع"، باعتباره بدايةً للكتابات المنضبطة، أنها تفتقد إلى المنهجية والنضج، أو أنها تحتكم إلى الذوق الفني الذي يتجسد في شخصية الناقد أو البلاغي، وليس في قواعد لغوية أو نقدية أو منطقية ثابتة، وأنها تجعل من هذا الذوق معيارًا للكشف عن بلاغة النصوص وقيمتها وجمالياتها، ولعل ذلك يتضح من قول الدكتور شوقي ضيف في حديثه عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): "لا نكاد نتقدم بعد الربع الأول من القرن الثالث الهجري حتى يتجرد معتزلي كبير – هو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة – لدرس شئون البيان والبلاغة، فيؤلف كتابه «البيان والتبيين»...، جامعًا فيه ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب وسجل كثيرًا من ملاحظات معاصريه..."(١).

فهو يرى أن الجاحظ لم يكن مؤسسًا لدراسة بلاغية نقدية منهجية، وإنما كان يجمع ملاحظات متفرقة من هنا وهناك، ويؤكد هذه الفكرة أن الدكتور شوقي ضيف جعل الحديث عن الجاحظ ضمن مباحث الفصل الأول الذي يتحدث عن نشأة البلاغة، وجعل كتاب "البديع" لابن المعتز أول مباحث الفصل الثاني الذي يتحدث عن الدراسات المنهجية التي تناولت الدرس البلاغي.

وظلت هذه الفكرة شائعة بين كثير من الدارسين، حتى جاء الدكتور فوزي السيد عيد بكتابه "المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين" الذي أصدرته مكتبة الأنجلو المصرية، بالقاهرة، عام ٢٠٠٥م، فبدد هذه الفكرة بطريقة علمية عملية أظهر من خلالها المنهجية التي كان يتمتع بها الجاحظ والجهود البلاغية التي قدمها من خلال كتابه "البيان والتبيين"، وأن النظرية البلاغية في هذا الكتاب كانت شبه مكتملة، غير أنها كانت بحاجة إلى إعادة ترتيب وتبويب، وهو ما استطاع الدكتور فوزي السيد أن يقدمه في كتابه "المقاييس البلاغية"؛ فقد تكلف مشقة الكشف عن مسائل البلاغة وقضاياها عند الجاحظ، وهو ما يمثل مغامرة علمية، بالإضافة إلى اجتهاده في وضع الهيكل النظري لبلاغة الجاحظ، وهو بذلك يعيد بناء أفكار الجاحظ البلاغية، ويقدمها للقارئ في ثوب أكثر ترتيبًا وسهولة.

وقد قسم الدكتور فوزي كتابه إلى أربعة أبواب بعد المقدمة، تناول في الأول منها عصر الجاحظ ونشأته وحياته وعلمه وصفاته ومذهبه الاعتقادي وتلاميذه ومؤلفاته، كما تحدث في الباب الثاني، الذي قسمه إلى أربعة فصول، عن البلاغة العربية قبل عصر الجاحظ، بداية من البذور البلاغية في العصر الجاهلي، وانتهاءً إلى المقاييس البلاغية في أوائل العصر العباسي، مرورًا بالجذور البلاغية في صدر الإسلام، والملاحظات البلاغية في العصر الأموي؛ متوقفًا في كل مرحلة من هذه المراحل عند أهم خصائصها ومميزاتها. فمثلًا يقول بعد أن ساق عددًا من النماذج النقدية البلاغية في العصر الجاهلي:

(١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط ١٣، صـ ٤٦.

"... الكثير من الضوابط والمقاييس والأصول التي قامت عليها البلاغة العربية نمت ونبتت في العصر الجاهلي، وكانت راسخة في عقول الشعراء والخطباء والنقاد جميعًا"(١).

كما ربط الدرس البلاغي في صدر الإسلام بالقرآن الكريم، ذاكرًا نماذج من كشف الصحابة لبلاغة القرآن في مقدمتهم عبد الله بن عباس ﷺ، فيقول بعد ذكر عدد من اجتهاداته: "ولا شك أن ابن عباس من أعلام المفسرين من صحابة رسول الله ﷺ، فهو مفسر من الطراز الأول الأصيل، يغوص بفكره وفطرته وراء الأساليب القرآنية يستشف ما فيها من اللطائف والنكت..."(٢)، كما يقول أيضًا: "كما نلمس هذه الإشارات واللمحات البلاغية بوضوح عند الصحابي العالم عبد الله بن عباس..."(٣). وهو بذلك يقدم ابن عباس باعتباره نموذجًا لبلاغيي عصر صدر الإسلام، كما يؤكد فكرة تناول القضايا البلاغية مرتبطةً بالآية التي يكشف معانيها وأسرارها بعيدًا عن تناولها باعتبارها درسًا بلاغيًا قائمًا بذاته، ومستقلًا في أبواب ومسائل.

ولم يقف الدكتور فوزي السيد عند ابن عباس فقط، بل تناول الآراء البلاغية لغيره من الصحابة؛ مثل عمر بن الخطاب ﷺ، فيقول: "كما نلمس وضوح الضوابط البيانية في نقد سيدنا عمر ﷺ نلمس أيضًا أثر الدين الجديد والقرآن الكريم في هذه الضوابط..."(٤)، ثم يؤكد ثبات قواعد النقد عند جميع نقاد المسلمين فيقول: "ومثل عمر – في نقده – كان كل نقاد المسلمين في ذلك العصر، فقد كثرت ملاحظاتهم البيانية على الشعر وسائر فنون الكلام مترسمين – في ذلك – خطى الإسلام وتعاليمه السمحة"(٥)، ثم يصل – بعد ذكر العديد من النماذج – إلى النتيجة التي نص عليها بقوله: "ومن كل ما سبق ندرك – بوضوح – أن الضوابط البلاغية أصبحت أكثر وضوحًا واتساعًا وعمقًا..."(٦).

وتحدث في الفصل الثالث من الباب الثاني عن الملاحظات البلاغية في العصر الأموي كاشفًا عن العوامل التي أدت إلى نشاطها وازدهارها ومظاهرها، وذكر من هذه العوامل والمظاهر: تشجيع الخلفاء والأمراء، وكثرة الفرق وتعدد الأحزاب، ومجالس النقد، والأسواق الأدبية، والنقائض، ونشأة علوم اللغة. كما تحدث في الفصل الرابع من الباب نفسه عن المقاييس البلاغية في أوائل العصر العباسي، ويرى أنها ازدادت وضوحًا وعمقًا، كما شارك فيها فئات متعددة وبيئات مختلفة، وتناولها بشكل مفصل؛ حيث تناول إسهام خمس بيئات في إثراء العملية النقدية والبلاغية، وهذه البيئات هي: بيئة الأدب والنقد، وبيئة الكُتَّاب، وبيئة اللغويين والنحويين، وبيئة العلوم الدينية، وبيئة المتكلمين. وعرض بعض النماذج من إسهام كل فئة من هذه الفئات.

أما الباب الثالث فهو يعد أهم أبواب الكتاب؛ إذ هو صلب الموضوع؛ حيث يتناول المقاييس البلاغية في "البيان والتبيين"، وينقلها من قالبها الانطباعي التذوقي – فيما يبدو للقارئ – إلى قالب

---

(١) فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القــاهرة، د. ط، ٢٠٠٥م، صـــ ٥٦.
(٢) السابق، صـــ ٦٢.
(٣) السابق، صـــ ٦٣.
(٤) السابق، صـــ ٦٧.
(٥) السابق، صـــ ٦٨.
(٦) السابق، صـــ ٦٨.

نظري محكوم بالقواعد والأسس يدركه كل قارئ، ويتناول في هذا الباب خمسة فصول يناقش من خلالها القضايا البلاغية التي بحثها الجاحظ، وأدلى بدلوه فيها، وشكلت منهجه البلاغي. فتناول في الفصل الأول منها "البيان عند الجاحظ" مبيّنًا معناه وأهميته وفضله وقصوره على العرب وأصوله وضوابطه، ويصرح بذلك المؤلف في مدخله لهذا الفصل؛ حيث يقول: "كان البيان هو الموضوع الرئيس الذي أقام الجاحظ عليه كتابه، فكشف عن معناه موضحًا آراء السابقين فيه، ومبرزًا أهميته وفضله، وما له من أثر عظيم وخطر جليل، كاشفًا عن أصالة العرب في هذا الباب...".

ويعتمد الدكتور فوزي في عرض كل قضية على كلام الجاحظ نفسه، فيقول: "إن الأديب أو المتكلم إذا كتب أو نطق فإنما يكون غرضه إخبار السامعين أو القارئين بما يقصد إليه من معانٍ... ووسيلته إلى ذلك كلام مبين، يفصح به عما في نفسه وعقله... وقد أوضح الجاحظ – في كتابه – تلك الأهمية وذلك الفضل للبيان... ونراه يفصح عن ذلك بقوله: المعاني القائمة في صدور الناس، المقصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها..."(١).

أما الفصل الثاني من الباب الثالث فتناول فيه المدخل النظري لعلم البلاغة، أو ما يسمى بالمقدمات، وهي المسائل النظرية التي تتصدر كتب البلاغة؛ حيث تحدث عن قضايا الفصاحة والبلاغة، فتحدث عن فصاحة المفرد وما يمنع من ذلك من: غرابة الكلمة ومخالفة مقاييس الطبع وتنافر الحروف ومخالفة القياس اللغوي، وتناول فصاحة الكلمة، وما يسلبها ذلك من: تنافر الكلمات وضعف التأليف والتعقيد، كما تحدث عن فصاحة المتكلم، ومعنى البلاغة، وقضية اللفظ والمعنى. وهو في كل ذلك موافق من ناحية الترتيب والتبويب لما أحدثه السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وهذبه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ).

والفصل الثالث يتناول بعض مسائل علم المعاني؛ حيث تناول قضية الحذف، وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وقضية القلب، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب. أما الفصل الرابع فخصصه لتناول مسائل علم البيان التي ناقشها الجاحظ في كتابه، فتحدث عن التشبيه والاستعارة والكناية، والفصل الخامس جعله لألوان البديع في كتاب الجاحظ، فتناول: التقسيم، والهزل يراد به الجد، والسجع، والازدواج، والسرقات الشعرية، والاقتباس، والتلميح، وبراعة الاستهلال.

وصنيع الدكتور فوزي في الباب الثالث صنيع المنظر، الذي يستخلص القواعد والأسس، ويوحد المصطلحات، ويقارب المفاهيم؛ مما يكشف بوضوح وجلاء عن عقلية الجاحظ البلاغية، وأنها لم تكن عقلية عشوائية أو مجرد عقلية انطباعية تذوقية، وإنما كانت عقلية تنظيرية تهتم بالقواعد والأسس العلمية في ثوب أدبي تذوقي.

واختتم المؤلف كتابه بالباب الرابع الذي أتى بعنوان: "البيان والتبيين في ميدان البحث البلاغي"، وقسمه فصلين: الأول منهما بعنوان "أثر البيان والتبيين في ميدان البحث البلاغي"، وقد تناول أثره في أعلام البلاغة العربية على مر العصور: عبد الله بن قتيبة، والمبرد، وثعلب، وعبد الله بن المعتز،

(١) السابق، صـ ١٢٧.

وقدامة بن جعفر، وأبو هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني. أما الفصل الثاني منه فجاء بعنوان: "الجاحظ أول مؤسس لعلم البلاغة"، ويسعى في هذا الفصل إلى تأكيد قيمة الجاحظ البلاغية، ومكانته بين البلاغيين العرب، فيقول: "إن من يقف على هذه المقاييس التي أحصاها الجاحظ في البيان والتبيين يستطيع أن يدرك الأسلوب الذي عرض به هذه المصطلحات، سواء ما اهتدى إليه بعقله وتقديره، أو ما نقله من غيره من العلماء والرواة. وهذا الأسلوب يتلخص في عرضه لهذه المصطلحات والمسائل البلاغية عرضًا أدبيًا يميل إلى جانب الذوق، مستلهمًا منه الضوابط والمقاييس التي حاول أن يصل إليها في كتابه. إن الجاحظ بما قدمه – في كتابه – من مقاييس وأصول تتصل بالبلاغة والبيان إمام فذ من أئمة البيان العربي، بل هو المؤسس الأول لعلم البلاغة بلا منازع. وليس في هذا القول ضرب من المبالغة أو الإسراف، فكتاب الجاحظ هو أول مؤلف جمع فيه صاحبه تصور العرب وغيرهم للبيان والبلاغة والفصاحة..."[1].

وذيَّلَ الدكتور فوزي كتابه "المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين" بقائمة من المصادر والمراجع، جمع فيها ما اعتمد عليه من كتب في تأليف كتابه، وقد بلغ عددها (٩١) كتابًا، في مجالات متنوعة بين كتب في البلاغة، والنحو، وعلوم القرآن، والحديث، وكتب الأدب، والنقد، والمعاجم، وكتب الأخبار، وكتب التراجم والأنساب، وكتب التاريخ والسيرة، والملل والنحل والمذاهب والأديان، وغير ذلك؛ مما يؤكد على قيمة الكتاب ومكانته، وما بذله من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة، والهدف المنشود، وهو ما يتمثل في الكشف عن النظرية البلاغية عند الجاحظ، وإعادة بنائها من جديد.

(١) السابق، صـــ ٣٠٦.